قصة روحي

بقلم : د. حسين كبه

عرفته قبل ثلاثة عشر عاما ، عن طريق احدى صديقاتي ، وكنت اذ ذاك قد قطعت من سني حياتي عشرين عاما. وكانت نظرتي اليه نظرة اعجاب وتقدير، فقد رايت فيه انسانا مليئا بالحيوية والشباب ، له مثله الخاصة به ، وله قيمه الانسانية التي يتخلق بها، وله من تجاربه المؤلمة ما قد صقلته وشذبت طبعه ، فجعلته جديرا بالثقة والاحترام.

وقد كانت اول انطباعاتي عنه ، انه شاب حي ، قليل الكلام ، لا يندفع بعواطفه ، ولا يصرح بما يخالج نفسه، تبدو على تصرفاته البساطة وتزينها المجاملة واللطف والثقة بالنفس . وهو ، وان لم يكن اريحيا لامعا في معاشرته ، يحبه كثيرا من تقرب منه ، وتكلم معه ، وعرفه ، واحسن فهم طبيعته . ولم يطل بي الزمن حتى جرت مراسيم خطبتي منه .

فكان « مغامر » يدعونني في ايام خطوبتي للخروج معه معا في نزهة قصيرة ، ويعرض على احيانا مشاهدة فيلم سينمائي . وكنت اتقبل منه دعوته، واقبل على ما يدعونني اليه . وقد كنا حين نخرج معا ، نشعر براحة نفسية ، تتزايد كلما اطلنا اجتماعنا ، ونتحسس بدوافع تبعث فينا الامل ، وتحفزنا على التقارب وتشوقنا الى استماع احاديث بعضنا للبعض الاخر، ومشاركة كل منا لشجون الاخر . فكان يطول بنا الحديث ساعات لا نعرف عدها ، ولن نشعر بملل قد اصابنا . بل كان الشوق يرينا ان قيم الزمان تتمثل بهذا الحديث الذي نطيله فيه . وسرعان ما تمكنت الثقة بيننا ، وآمن كل منا بمقالة صاحبه ، وصدق خبراته ومغامراته ، وما جرته عليه ايام غناه واملاكه ، وصرت اشعر بفراغ كبير كلما افتقدته ، ولن تطمئن نفسي الا أن يكون معي . ولم البث ان شعرت بانه الانسان الوحيد الذي ضمه قلبي واحتضنته عواطفي ، وكان قد اوحى الى ، آخر الأمر ، أن هذا التقارب بين روحينا ، ان هو الا الحب الذي استعرت نيرانه بين ثنايا قلبينا ، وشعرنا ان لن تستقيم لنا سعادتنا الا ان نعجل بأمر الزواج . والحقيقة انني كنت واثقة من « مغامر » كل الثقة ، فهو الرجل الذي يمثل حقا دماثة الخلق

وكياسة الشخصية . وقد جمعني واياه شعور متبادل ،وفكر مثالية متجانسة . ولم تكن لتخامرني الظنون قط ، ان قد نصاب بخيبة امل فيما كنا قد عقدنا النية عليه ، او قد نقع فيما لم نكن نتوقعه .

وكنا نلتقي احيانا كثيرة ، وقد ننفرد بانفسنا بعيدين عن نظار المتطفلين . ومع ان الحب كان يغمر قلبينا ، فلم يكن ليخلو اجتماعنا من نزاع واختصام . ولا يبعد ان يكون الاغراء الجنسي المتبادل بيننا قد مكن هذا الخصام ووسع نطاقه .

والواقع ان التفكير بتعجيل امر الزواج وتقريب ميعاده ، قبل ان ننهي دراستنا ، كان ضربا من الخيال ، ولذا كانت الصعوبات تتفاقم دوما ، حين نجلس نتحدث معا لنكون على بصيرة من امرنا ، وقد كنا نشتبك احيانا كثيرة في حديثنا فيشاكس احدنا الاخر فيه ، وكانت كل صغيرة وكبيرة تقودنا الى نزاع فخصام ،قد يبعد مداهما .

واهم ما كان مثارا للنزاع ، هو اختلاف نظرتنا الاخلاقية في الحياة . فكان « مغامر » يرى ان الانسان عليه ان يوسع افقه في كل ما يتناول المشاكل الاخلاقية ولا يعتمد الا على نفسه ، ولا يثق بغيره ، فكانت نفسه تتقزز من كل افك او كذب او بهتان ، وتشمئز من كل تصنع ورياء . وهو الى ذلك قلما تستميله الامور الهامة التي تتعلق بمصالح الناس . ويبدو انه كان قد اخذ بتربية الروح الانانية فيه ،فكان يرى ان من الصعب عليه ان يساير الآخرين او يتحمل تصرفاتهم او ينصت الى ارائهم .

في حين كنت على نقيض منه ، اذ كان يروق لي مخالطة الناس ، ويعجبني الاستماع الى آرائهم ، ويهمني الصلات المتبادلة بيني وبينهم ،واهمها الصلات المعنوية والاخلاقية . وقد اثرت في هذه النظرة العامة للحياة فطبعتني بطابع المثاليات ، وعزلتني عن واقع الحياة ، فاضلتني الطريق . فكنت بهذه النظرة المثالية امثل من يرى ان ليس في العالم انسان شرير بطبعه . وهي نظرة غرست في الضعف والخور في مصاحبتي الناس ومعاشرتي لهم ، فكانت تنقصني الفكرة العملية . فلم اكن افهم ، بعد الزواج ، شيئا مما جد في حياتي ، بل لم اكن في الحقيقة مهيأة لحياة زوجية صحيحة .

كان كل منا يضجر من صاحبه ، ولا يستطيع احتماله . فانا لم اكن استطيع ان استسيغ انسانا يحبني ويشاركني حياتي ، وهو لايعنى بأهم مايعترضني من مشاكل وآلام ، فيتركني نهب عواصف الظروف والمصادفات . ولذلك كان كل اختلاف بيننا يوقعنا بابسط اشكاله في دوامة من سوء الفهم . ولم يكن من السهل علينا السيطرة على انفسنا للوصول الى حل نرتضيه .

فكان ان تراءى لنا ، بعد ايام العرس مباشرة ،ان زواجنا كان غلطة لن تغتفر ويندفع « مغامر » فيقول لي مرة ، الا ترين أن حياتنا ستستمر على هذه الوتيرة من نكد العيش ؟ ، اذ يرانا الناس في ظاهرنا نعيش معا تغمرنا السعادة ويفعم قلبينا الحب وهو غير ما نحياه على حقيقتنا ، ولا يجمل بنا أن يخادع احدنا الاخر ، ولا نريد ان يتقول الناس عنا كثيرا .

فكان الوضع يسير من سيء الى اسوأ . وطبيعي اننا لم نكن قد اردنا ان تتردى علاقاتنا الزوجية ، ويتأزم امرها . ولعل من البديهي ايضا ان لم يكن باستطاعتي التسامح معه ، ولا اغتفار قارص كلامه ، وهو الذي لم يعد يضمني اليه او يستأثر بي مرة واحدة ، فيكرس لي لحظات اختص به لنفسي ، لحظات توقظ في الحياة ، وتشعرني بحرارتها . ولم استمع منه كلمة « احبك » وقد كانت قبل هذا ملأ فمه . انها لتحلو لي ، حتى ولو لم يكن يقصدها .

ومن الغريب ان يؤول الامر بي الى ان اتبلد ، واتغابى الى هذا الحد ، ترى ايكون بالامكان انقاذ الموقف ، وتلافي ما قد بدر من غلطات الماضي !!

والواقع اننا كنا في علاقاتنا المتبادلة غير آبهين بما نقول ونعمل ، يغلب على تصرفاتنا التهور والطيش ، وتدفعنا الثقة والاخلاص ، وتتحكم فينا الصراحة والسذاجة . وقد كنا في الحالات التي يتأزم فيها الوضع بيننا نختار الطريق المريح للتوصل الى احلال التفاهم والوئام . وهو طريق المهادنة والصلح لاحلال السلام .

وحين كنت اتخذ من هذا الطريق مسلكا ، كنت اكتفي بان يقول لي ، انك محقة ، انني اشاركك الراي فيما ذهبت اليه ، فيتراءى لي ان قد هدات الزوبعة ، وعادت الامور الى مجاريها . ولعل من الحق ان يقال ، بأن الزوبعة قد ترى ان قد هدات حدتها ، وهو لاشك هدوء يجب ان يقف منه الانسان حذرا ، فلا يأخذنه الغرور .

فمن السهل ان يساير المرء صاحبه ، فيقره على ما يريد وما يرتئيه ، في حين هو يضمر في نفسه غير ما اقره عليه ، وهو في الحقيقة لا يبتغي من ذلك غير مهادنته ، واحلال الهدوء والسكينة محل التنابذ والتشهير والمهاترة . واقل ما يحتمل ان يقال في مثل هذا السلوك ، انه ضعة للنفس وامتهان لكرامتها . واني لعلى ثقة ، باننى لو لم احد في حينه عن هذا الطريق ، طريق الكذب والخداع لكان كل منا ، وكانه غريب عن صاحبه ، لا يمت اليه بصلة ولكانت مهادنة لا حياة فيها .

ومن يدري ، فلعلي من فقدان وعيي واضطراب نفسي وحيرتي في امري صرت افزع ان يكون بين احشائي ما لم اكن قصدت اليه . ولم يكن فزعي من اننا لما نزل بعد في الجامعة ، ولا لان الظروف لم تكن بعد مواتية ، ولا لاننا لا نريد ان ننجب اطفالا ، بل لاني في الحقيقة لا اريد ان افتقد شيئا من جمالي . ومن يدري ما قد خباه القدر لي ! وها هو الخوف يترصدني ، فلعلي لا اقوى على حمله ، وقد لا يبعد ان يسقط من احشائي قبل ان ينتهي الخصام بيننا .

ولم اشعر الا وانطوت هذه الايام ، فتبددت الغيوم ، وتجلى لي خلاف ماقد تصورته ، وتغيرت ظنوني فيه . اذ اخذ يرعاني ويحنو علي ، ويعنى بي ، ويهمه ان يراني . وبدا لي ان قد شغل بي وقلق من اجلي ، وتخوف من ان يصيبني سوء او ان يحتبس طبعي . فعاد لاول مرة يحمل معه باقة من زهور الياسمين ، وهو الذي لم يكن قد اعتاد هذا الاسلوب في حياته من قبل . وبدأنا نستعيد روابط الحب المشتركة بيننا ،

وعلاقات الود والاخلاص المتبادلة، وعادت شعلة الحب ، تنير لنا طريق الحيـــاة السعيدة .

وحين ولدت « شقرة » ســمحت لنفسى ان اســتمتع بجولة منعشـــة انتهت بى الى حيث يســـكن ابوى ، وصعب على ابتعـادى عن « مغامر » وفراقى له . وكان هو الاخر لم يحتمل البعاد فجاء الى يسعى يحدوه الشوق ، رغم ضيق الوقت ، وضيق ذات اليد ، وعاود زيارته فى كل مرة سمحت له فيها ظروفه . فعاد اوار الحب يلهب قلبينا ، وانجذب كل منا للاخر ، جذب الصائد لفريسته ، من غير ان يكون لارادتنا اثر فى ذلك . فقد كنا نرى أحيانا صامتين لا يكلم احدنا الاخر بلسانه ، ولكننـ نتحسس الحب بين قلبينا . وقد يكتفى الانسان ان يجتمع بمن يحب ويهوى ؛ ويشعر بقربه منه .

ولم تكن نرغب ان ننجب اطفـالا ؛ ومع ذلك ، فلم تكن تلك الرغبة سهلة التحقيق . وكانت تنتابى قبل ولادة « شقرة » ثورة عارمة ، تشعرنى بألم

نفسي ، يكاد يفقدني معنوياتي ومقدساتي ، لولا ايماني بالله وتعاليمه الاخلاقية .

ولم نلبث ان فاجأنا القدر ، فلم نشعر الا وقد خانتنا الارادة ، وجانبنا الحظ ، فولدت توأمين ، ولم يكد يمر غير ربيع واحد من عمر « شقرة » ولم تكن اوضاعنا المالية تسمح لنا بحياة كريمة ، فازدادت حراجتها وتعقدت سبلها بعد ولادة هذين التوأمين . اذ كان ما يكسبه « مغامر » من رزق لا يكاد يكفي اودنا ، ولم اكن استطيع العمل لاكسب ما يساعدنا على الحياة ، فتربية أولادي وادارة بيتي قد استغرقتا كل ساعات ايامي ، ولم يعد بيتنا ، هو الآخر . يتسع لنا بعد ، فقد كان في ضيقه يزيد من شقائنا وتنغيص حياتنا ، وهكذا عادت الحياة تتأزم من جديد ، وطفقت تراودني الوساوس والاوهام . فبدا لي ان « مغامر » لم يعد يعيرني اهتمامه ، ولم يندفع لمساعدتي في اعمالي البيتية ، وبدا عليه الضجر والسأم ، فلم يعد يشعر بالراحة في بيته ، وكيف يجدها وها هي زوجه ، لم تنفك تشكو وتندب حظها ، وتتأوه وتنادي بالويل والثبور . فسئم كل منا صاحبه ، وتوترت اعصابه ولم تعد تحتمل الحياة . وتحكمت في انانيتي ، فاندفعت أغتنم كل لحظة ، استلقي فيها ، واسلم نفسي لنوم عميق . ولم اجد ضرورة تدعوني الى ان اكون ضحية هذا الوضع ، وسرعان مادب في نفسي شعور بالكراهية لزوجي . ولم يخطر لي ان افكر في حل هذه الازمة ولم تبدلي امكانيات اخرى تصلح ان تكون وسطا بين فكرة التضحية التي كانت تراودني احيانا وبين فكرة الانانية كادت تنتزع الحب من قلبي .

وسرعان ما تفتحت لي آفاق جديدة ، فبدا لي ان خير ما يمكن ان نخفف به من حدة هذه الازمات ، هو تحكيم العقل وحصر مواضيع الزوجية بنا وحدنا .

انها رحمة الله التي حلت في نفسينا ، فانقذتنا من بؤسنا ، اذ حظينا بمنزل رحب ، ورزق مبسوط ، وعادت الى نفسي الثقة والاطمئنان . وادركت ان « مغامر » يكد ويكدح ، ليوفر سبل الحياة الرغيدة لعائلته ، فهو يضحي براحته وبجهوده لراحتنا ، وقد مرت عليه أيام كان يعمل فيها منذ الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل ، ليقيم اودنا ، يحدوه الشعور في تحمل مسئولية عائلته .

ولعلي قد تكلمت حتى الآن كثيرا عما لاقيته في زواجي من صعوبات وآلام . والحق اني ، مع كل ذلك ، قد تمتعت في غضون الاثنتي عشرة سنة ، التي قد قضيت أيامها في حياتي الزوجية ، بساعات حلوة لا تمحى من مخيلتي . فقد تخللتها لذائذ ومنغصات ، لم يكن لها مثيل في واقع الحياة .

فكان ان شعرنا ، انا و « مغامر » ان قد استطاع كل منا ان يحسن فهم صاحبه ، ويألفه ، كلما مر الزمن . وانا الآن لو قدر لي ان احيا حياة جديدة في هذا العالم لما اخترت ان اسلك غير هذا الطريق نفسه ، ولفضلت ان اتزوج « مغامر » ، ولحاولت في الوقت نفسه ان اتجنب الفلطات التي مررنا بها . واظنه ، هو الاخر ، يرى مثل ما قد ارتأيته .

ولولا ايماننا بالله ، وثقتنا بعونه ورحمته ، ما كان باستطاعتنا ان نتغلب على تلك الازمات الحادة ، التي اعترضت طريقنا ، ولما حظينا بحبنا .